كيف تحيط الخطيئة بالمذنب؟

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ 2009/4/3م

خلق الله سبحانه وتعالى من المخلوقات مخلوقاتٍ نورانيةً لا تعصيه أبدًا وهم الملائكة، وخلق مخلوقات لا تطيعه أبدًا وهم الشياطين، وخلق مخلوقًا بين المخلوقات المذكورة يخطئ ويصيب، ويعصي ويطيع، وأراده أن يكون توّابًا، فكان من المخلوقات طائعٌ صرف، وكان منها مذنبٌ صرف، وكان الإنسان التوّاب، وأحبَّ الله هذا التواب حيث قال: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ } [البقرة: 222]، وجاء في الحديث: (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ).

وليست المشكلة السلوكية في أن يخطئ الإنسان، فهذه صفة أساسية تكوَّن عليها الإنسان، لكن المشكلة السلوكية تكمن في من يختار طريق الخطأ له منهجًا، وينصرف عن طاعة ربه انصرافًا تامًّا، وحينما يصل الإنسان إلى مرحلة لا يعرف فيها للتوبة طريقًا، ولا تكون التوبة خاطرًا يخطر على باله.

وأحببت في هذا اليوم أن أتأمل مع حضراتكم آيةً في كتاب الله تبارك وتعالى، وهي قوله سبحانه:

{ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [البقرة: 81].

إنها آية تدعونا إلى التأمل طويلاً:

{ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً } فالذي يكسب السيئة كثير، لكن المشكلة التي ساقت صاحبها إلى الخلود في النار إنما هي إحاطة الخطيئة بهذا الإنسان.

{ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ } فلم يكن أمر هذا الإنسان المذكور في هذه الآية الكريمة أنه أخطأ، بل القرآن الكريم يشير إلى رفع الحرج عن المخطئ، واقرؤوا قوله تعالى: { وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الأحزاب: 5]

وانظروا بين الآية التي هي محور حديثنا والآية التي ترفع الحرج عن المخطئ، فالآية التي تهز كيان الإنسان: { بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ } أحاطت به خطيئته فصار كالمقيّد والمقفّص والمسجون.

ومن خلال كتاب الله نستطيع أن نفهم شيئًا عن معنى هذه الآية الكريمة، وهذه الآية إنما مظاهرها السلوكية منتشرة في مجتمعاتنا التي تسير مع الأسف الشديد شيئًا فشيئًا إلى هذه الحالة التي يكون فيها الإنسان محاطًا بالأخطاء، ومحاطًا بالآثام، ومحاطًا بكل أسباب دخول النار...

وقد فصَّل القرآن الكريم، فقد يُلوِّث الإنسانُ بالخطأ والفسوق نفسَه، وقد يلوِّث عقلَه، وقد يلوِّث دماغَه، وقد يلوِّث قلبَه، وقد يلوِّث صدرَه، وقد يلوِّث جوفَه وبدنَه، وقد يلوِّث لسانَه، وقد يلوِّث عينيه وأذنيه وفرجَه، وقد يلوِّث يدَه، وقد يلوِّث قدمَه، وقد يلوِّث جلدَه، وقد يلوِّث جبهتَه ورأسَه...

فالقرآن يفصِّل في هذا تفصيلاً يريد من خلاله أن ينبهنا إلى جزئيات السلوك، وعندما يلوِّث كلَّ هذا كيف لا تحيط الخطيئة بالإنسان؟

إنه ما ترك منفذًا للخير، فلو أن يده كانت في طاعة الله سبحانه وتعالى وتشق الطريق إلى الأنوار لربما كان هذا سببًا في خروجه من إحاطة الخطيئة..

ولو كانت قدمه تمشي في فعل الخيرات لربما نفذ من خلال ذلك و لم تكن خطيئته محيطة به..

ولو أنه سجد سجودًا مستغرقًا فيه الصدق والإخلاص لربه لربما كان هذا السجود سببًا لخروجه من تلك الإحاطة ومن ذلك السجن الذي يسوقه إلى خلودٍ في نار جهنم.

تعالوا بنا نقرأ بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى هذا التلوث الفسوقي الذي قد يقع الإنسان فيه في كل أجزاء جملته الإنسانية والبشرية:

1- أشار القرآن الكريم إلى أن الإنسان قد يلوث نفسه: والنفس إنما هي الوظيفة المعنوية التي تخدم الإنسان في غرائزه وشهواته، فكل رغبات الإنسان التي يحققها ويحقق من خلالها ما تهواه نفسه من الشهوة ومن الرغبة الغريزية إنما تدفعها تلك الوظيفة المعنوية المسماة النفس، والقرآن الكريم قال: { وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا } [الشمس: 7-10].

إذًا: يمكن للإنسان أن يكون مطهِّرًا لنفسه، ومرتقيًا برغباته إلى المستوى الإنساني المنضبط بأمر الله سبحانه وتعالى، وقد يكون ملطِّخًا وملوِّثًا لهذه النفس حينما يوجّه رغباتها إلى الدنيء وإلى المنحط.

2- ويمكن للإنسان أن يلوث عقله: وذلك حين قالوا كما ينصّ القرآن الكريم وهم في نار جهنم: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ } [الملك: 10] فالقرآن يصرّح في هذه الآية أن هذا الإنسان كان معطِّلاً لعقله وصارفًا له عن المنهج الصحيح الذي من خلاله يفكّر تفكيرًا سليمًا، فيقوده هذا التفكير إلى المنهج القويم.

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ } وها هنا "**نَسْمَعُ**" بمعنى **نستمع**، فلو أن هذا الإنسان استمع لأمر الله، وكان مطيعًا لما أمر الله سبحانه وتعالى به، وعقل عن الله سبحانه وتعالى أن هذا المنهج إنما هو طريق الهداية والصلاح والرشاد... لم يكن ليصير إلى هذه النار.

3- قد يلوث الإنسان دماغه: واليومَ تتحدث البحوث العلمية كثيرًا عن الدماغ، والآية في القرآن التي تتحدث عن الدماغ آية عجيبة.

فالعقل محله القلب، لكن نور العقل في الدماغ، كما يقرر ذلك العلماء من خلال فهم القرآن، فالقرآن قرر أن القلب هو محل العقل بقوله: { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا } [الحج: 46].

فالنص صريح في القرآن أن محل العقل إنما هو القلب، وسوف يأتي اليوم الذي يستطيع العلم أن يدرك من خلاله تلك العلاقة بين القلب والعقل، لكن القرآن الكريم أشار إلى الدماغ، والدماغ يستمد النور من القلب، فيكون محل العقل في القلب، ويكون نور العقل في الدماغ.

واقرؤوا قوله تعالى: { كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ، نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } [العلق: 15-16]

إننا حينما نقرأ قراءة معتادة نعلم أن الخطأ يكون في السلوك العام، وأن الكذب يكون في المحل، لكن القرآن يتحدث عن كذب الناصية وعن خطأ الناصية، وهذا يتطابق تطابقًا تامًّا مع البحوث العلمية التي تؤكد أن المركز الذي ينبعث السلوك منه إنما هو في الناصية، ويصف الله سبحانه وتعالى هذا المركز الدماغي وصفًا دقيقًا فيقول: { نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ } .

وقال سبحانه وتعالى: { يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ } [الرحمن: 41]

فالناصية كانت سبب الخطأ وسبب الكذب، والأقدام ساقت البدن إلى حيث أرادت تلك الناصية.

إنه توصيف عجيب في القرآن يتحدث عن أثر الدماغ الذي ينبغي على الإنسان أن يعتني به كما يعتني بعينيه وأذنيه ويديه وقدمه...

4- قد يلوث قلبه: قال الله سبحانه: { لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا } [الأعراف: 179]

فجعل الله سبحانه وتعالى القلب محل الفهم ومحل الفقه عن الله، وحينما يغلق الإنسان منافذ القلب بالذنوب فكيف له أن يتدبر كتاب الله؟

{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا } [محمد: 24]

{ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [المطففين: 14]

وهكذا يتعطل فهم القلب بسبب فعل الإنسان الذي أغلق من خلاله منافذ القلب، فتعطل الفهم عن الله، وأصبح ماديًّا صرفًا لا ينفعل لآيات الله، ولا يتأثر بها، ولا تدمع عينه تعظيمًا لله سبحانه وخشية له، بل تجده حجرًا ماديًّا بعيدًا كلَّ البعد عن خشية الله سبحانه وتعالى، وعن الرغبة في التقوى.

قـــال ســـبحانه: { خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ } [البقرة: 7].

وقال: { وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ } [البقرة: 283].

وهكذا ينبهنا القرآن الكريم إلى محلٍّ يمكن أن يكون من أسباب إحاطة الخطيئة.

5- قد يلوث صدره: والصدر - كما يقرر العلماء من خلال الفهم المستمَد من الكتاب والسنة - إنما هو محلٌّ للمحفوظات المكتسبة التي يمكن للإنسان أن يجمّعها.

لا تقولوا: كيف نطابق بين هذه المعلومة، وما يقرر العلم اليوم؟

أقول: إن الذي وصل العلم إليه اليومَ شيء من الأشياء، ولا يستطيع أحد أن يقول: إن العلم أحاط بكـــل شيء.

الصدر يشير القرآن إليه في مواضع كثيرة، منها:

{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ، مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ } [الناس: 1-5].

والصدر امتُدح عندما قال الله لحبيبه: { أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ } [الشرح: 1].

كما ذمّه الله سبحانه حينما كان محلاً للكفر ومحلاً للخطيئة: { وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل: 106]

كما امتدح الله الذين تجمعت الآيات في صدورهم فقـــال: { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ } [العنكبوت: 49].

6- يمكن للإنسان أن يلوث جوفه وبدنه بالمال الحرام: حينما ينبت بدنه من المال الحرام، قـــال تعـــالى:

{ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } [النساء: 10].

وقال: { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ } [ص: 34-35].

إنه البدن الذي نبت من الحرام.

7- يمكن للإنسان أن يلوث لسانه: وذلك بالكذب والغيبة والنميمة والبهتان والمحظورات الشرعية:

واقرؤوا قوله تعالى وهو ينبه إلى محل الخطيئة هذا: { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ } [النحل: 116]

{ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا } [الكهف: 5].

8- يمكن للإنسان أن يلوث عينيه وأذنيه وفرجه بالحرام:

قال تعالى: { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء: 36]

وقال: { قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ } [النور: 30-31]

وقال: { وَقَدْ نزل عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } [النساء: 140].

وتجدون من خلال هذه الآيات كيف يوجه القرآن إلى وجوب حفظ العين وحفظ الفرج وحفظ الأذن حتى تكون بعيدة عن الخطيئة، وحينما تكون بعيدة عن الخطيئة لا تكون سببًا في سجن هذا الإنسان الذي تحيط به الخطيئة بكل جوانبه.

9- قد يلوث الإنسان يده بالمخالفة وقد يعطلها عن الواجبات:

قال تعالى: { فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ } [البقرة: 79] والذين يكتبون بأيديهم كانوا في الماضي يحرّفون الكتب، واليومَ الذين يكتبون من أجل إضلال الناس كثير، والكتب التي تُنشر من أجل تحليل الأخلاق كثيرة، والكتب التي تصرف فيها الأموال من أجل إضلال الناس ومن أجل صرفهم عن منهج الله كثيرة.

واقرؤوا على لسان نوح عليه الصلاة والسلام كما يحكي القرآن:

{ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ } [نوح: 8].

واقـــرؤوا قصـــة قابيـــل وهابيـــل: { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ } [المائدة: 28].

واقرؤوا قوله: { وَلَوْ نزلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ } [الأنعام: 7] فمع أن اليد أمسكت بالكتاب لكن الاستكبار منع قبول الحقّ، ومنع هذا الإنسان من أن يكـــون منصاعًا للحق وقابلاً له.

قال تعالى: { إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ } [يس: 8] والإقمـــاح هـــو أن يرتفع الرأس إلى الأعلى وأن تثبت الرقبة.

وقال سبحانه: { وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ } [يس: 9] أي قيدت أيديهم إلى أعناقهم، فإما أنهم فعلوا ذلك استكبارًا، وإما أنه كان عقوبة لهم في النـــار، لأن تلـــك الخطيئة التي فعلتها أيديهم والتي عبرت رقابهم كانت سببًا في إحاطة الخطيئة بهم في نار جهنم.

10- قد يلوث الإنسان فرجه بالمحرم: والله سبحانه وتعالى أراد للإنسان أن يبتعد عن الخطيئة عمومًـــا، وأن يبتعد فرجه عن الخطيئة خصوصًا، واقرؤوا قوله تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } [المؤمنون: 5-7].

11- قد يلوث الإنسان جلده بكشف عورته: والجلد جعله الله كساءً لهذا البدن، وحدد في الأحكـــام الشرعية معالم عورته للرجل وللمرأة، وهذا الجلد عضوٌ مُصان منضبط بالأحكام الشرعية.

قال تعالى: { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ } [النساء: 56].

وقال: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ } [الأحزاب: 59]

والحجاب من الأحكام الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة، واليوم يتحرك الكاذبون والكذابون من أجـــل أن يصرفوا الأمة عن قضية الحجاب ليقولوا: إن الحجاب عادة من العادات، وكذبوا، فإنـــه حكـــم شـــرعيٌّ وفريضة فرضها الله سبحانه على الرجل والمرأة، وحُددت بدقة عورة الرجل وعورة المرأة، وكان ذلك مفروضًا من الله سبحانه وتعالى ويندرج في المعلوم من الدين بالضرورة، الذي من أنكره يخرج من ملّة الإسلام ويكفر.

وقال سبحانه: { وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ } [النور: 31]

12- قد يلوث الإنسان جبهته بالخضوع لغير ربه: فقد أراد الله لهذا المسلم أن يكون بربه عزيزًا لا ينحني لغير الله، ولا يركع لغير الله، ولا يسجد لغير الله...

المؤمن بالله عزيز، واليومَ يذِلُّ المسلم مع الأسف لغير الله، ويعبد الناس بعضهم، واليوم تؤلّه أصنامٌ بشرية...

رضي الله عنك يا عمر يا ابن الخطاب يومَ أن كنت خليفةً للمسلمين وكنت تقف وتقول: اسمعوا وأطيعوا، فيقف واحدٌ من رعيتك ليقول لك: لا نسمع ولا نطيع، وتقول: لَمَ يا هذا؟ فيقول: لبست ثوبين وأعطيتنا ثوبًا ثوبًا، وتقول: قم يا عبد الله بن عمر، فيقوم عبد الله بن عمر، ويقول: إنني أعطيت أبي ثوبي لأنه كان طويل القامة.

هذا نموذجنا.. وهذا مثالنا.. ولا محسوبيات عندنا.

المساواة مقررة: **(لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)**، هكذا قرر الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، واليومَ نعيش زمن المحسوبيات وزمن الفوارق، لا الفوارق العنصرية بين أبيض وأسود، لكن الفوارق بين حاكم ومحكوم، وبين غني وفقير...

انتفت المساواة الإنسانية لغياب الإسلام على الأرض، وحين وجد الإسلام على الأرض كان الحاكم مساويًا للمحكوم، وكان الغني مساويًا للفقير، وكان القوي مساويًا للضغيف...

واليومَ نعيش زمن الكذب والصنمية وتأليه الأشخاص والفوارق بين الناس... لأن الإسلام في حقيقته غاب، والمسلم ذلّ، والله أراده أن يكون عزيزًا لا يحني جبهته إلا لله، ولا يركع إلا لله.

وانظر إلى الهدهد الذي يأتي إلى سليمان وقد دبّت الغيرة فيه، إنه في حالة غضب شديد، يأتي إلى سليمان الذي قال الله فيه: { نِعْمَ الْعَبْدُ } [ص: 30] فقد كان في الصورة ملكًا، وكان في الحقيقة عبدًا لله، ذليلاً لله، لا يتجبر على خلق الله بل يقوم برعايتهم، ويقوم بالأمانة، ويقوم بالخلافة...

انظر إلى غيرة ذلك الطائر الصغير الهدهد حين جاء مرتعدًا من الغضب إلى سليمان يقول:

{ وَجَدتُّهَا } يعني ملكة سبأ، { وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ } [النمل: 24]

إن الطائر لم يتحمل، واليومَ قلوبُ البشر تتحمل أن ترى السجود لغير الله.

قلب الطائر لم يتحمل أن يرى سجودًا لغير الله، ولكن البشر اليوم تمردوا على الله وذلوا ووافقوا، لأنهم تحولوا إلى عبّادٍ للمصلحة.

واقرؤوا قوله تعالى: { وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ } [الانشقاق: 21].

واقرؤوا قوله: { وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف: 161].

وهكذا ينبه القرآن إلى الخطيئة في أعضاء الإنسان، وعندما تكون الخطيئة في أعضاء الإنسان ستحيط به تلك الخطايا، وعند ذلك نفهم قوله تعالى:

{ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

{ وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ } لأنه كان خطّاءً في كل بدنه، وفي كل أجزائه، فلم يكن مخرج يخرج من خلاله من تلك الإحاطة.

لكن ألا يمكن للإنسان أن يخرج حينما تحيط الخطيئة به بالتوبة؟

نعم، واقرؤوا قوله تعالى: { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا } [الطلاق: 2]

وكذلك قوله: { إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا } [طه: 73]

فالتقوى مخرج من تلك الإحاطة، والإيمان الصادق مخرج يخرج الإنسان من تلك الإحاطة.

وأقرأ في الختام حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم كما يروي الحاكم في المستدرك وابن حبان في صحيحه والطبراني في الأوسط عن النبي صلوات الله وسلاماته عليه قال:

(إن الميت يسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، فإن كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصوم عن يمينه، وكانت الزكاة عن يساره، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلاة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، أي تريد الملائكة أن تعذبه من قبل رأسه، **فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل،** إنها الصلاة الحقيقية التي ارتفعت، لا الصلاة التي هي حركات.

فتقول الصلاة ما قبلي مدخل، أي: لا أسمح للعذاب أن يدخل من قبلي، **ويؤتى من عن يمينه، فيقول الصوم: ما قبلي مدخل، ويؤتى من عن يساره، فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ويؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل...) الحديث.**

وهكذا يحصن الإنسان نفسه من عذاب الله، وهكذا يكون الإنسان طاهرًا في الدنيا، ويكون مكرَّمًا في الآخرة، وهكذا يكون سبب الصلاح في الدنيا ويكون في الآخرة من ملوكها وأُمَرائها على منابر النور.

لابد أن يتحدث الإنسان كل يوم مع نفسه في أعضائه كلها، ولابد له أن يسأل أعضاءه، وأن يدقق في أعضائه، وإلا فإنه سيقع في إحاطة الخطيئة.

هذا أمر ينبغي أن يتنبه العقلاء إليه، والأمر جدٌّ ليس فيه هزل.

رُدَّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.